نكسة حزيران

أما المصيبة الكبرىٰ فكانت يوم الخامس من حزيران ١٩٦٧م ، عندما هاجمت القوات الصهيونية أراضي دولٍ ثلاث هي الأردن ومصر وسورية .

ومع اشتداد المعارك الشرسة بين القوات السورية والعدو بالمدفعية البعيدة والرشاشات القريبة ، وتحطيم آلياته المتقدمة وحصونه ، ومجموعات مدفعيته المختبئة في الجبال والوديان .

وبعد سقوط الجبهة المصرية في يَدِ الصهاينة ، وأمام تكثيف الهجمات علىٰ الجبهة السورية وشنِّ الطيران الحربي غاراتٍ متعددّة ، فقد وَقَعت مدينة القنيطرة وعدد كبير من القرىٰ والمزارع والتجمعات السكانية في أيدي القوات الصهيونية وسيطرت علىٰ ١٨٦٠كم٢ من الأراضي السورية في الجولان ، وعمدت القوات المحتلة إلىٰ طرد السكان من هذه المساحة السكانية في الجبهة ، وقتلت العديد من أهلها وأسرت المئات من الرجال والشباب وحتىٰ الأطفال ، ودمَّرتْ مدينةَ القنيطرة عاصمة المحافظة وجميعَ القرىٰ والبلدات والمزارع ؛ حتىٰ لا يعودَ إليها

أحدٌ منهم ويجد له مأوىٰ ، فسارَ الناسُ نحو الحدودِ السورية تحت تهديد السلاح ، منهم من يحملُ صُرَّة خبزٍ لأولاده ومن يحمل غِطاءً أو فِراشاً أو حملَ طحين علىٰ الدَّوابِ أو رؤوس النساءِ ، والأَسىٰ يلفُّ الجميعَ والحزنُ يسودُ النفوسَ والدموع تذرفُها الأمهاتُ علىٰ أبنائهنَّ الأسرىٰ ، والمصيرُ المجهول الذي ينتظرُ النازحين وهل سيصبحون كأهل فلسطين قبل حوالي ٢٠ عاماً ، وصارَ اسمهم اللاجئين.

ولما كانت الدولةُ العبريَّةُ تهدُفُ من عدوانها السيطرة علىٰ الأرض ومنابع المياه الغزيرة ، التي مصدرُها أرض الجولان من جباله ووديانه وبُحيراتِهِ وأهمها بحيرة طبريّا ونهر الشريعة المنحدر من جبل الشيخ ، ومن الكثير من الينابيع والعيون التي تصبُّ في البحيرة التي تعتبرها هذه الدولة المغتصبةُ مستودَعها المائي الكبير ، حيث تقومُ بجرِّ مياهه إلىٰ أرض فلسطين المحتلةِ.

وأقام الصهاينةُ مستوطناتٍ ومزارعَ للقادمين منهم من شتىٰ بلادِ الأرض وعائلات الجنود وأنشؤوا في الجولان أكثر من ٣٠ مستعمرة ، وكان في قرية سكوفيا مستعمرتا بني يهودا ويوعال يوعاف وفيهما أنشطةٌ زراعيَّةٌ وسياحيَّةٌ ، ولصناعة الطيران ومزارع الخيول ، وصارَ السياحُ الأمريكان والأوربيون يحضرون إلىٰ الجولان؛ ليتمتعوا بما يجدون من مناظرَ جَذّابة ساحرة وجوٍّ لطيف هادىءٍ في المستعمرات التي أنشأتها هذه الدولةِ المحتلةِ

علىٰ أرضِ النازحين السوريين في شواطئَ بحيرة طبرية والمرتفعاتِ المحيطة بها كالسِّوار ، وفي حمامات الحمَّةِ الكبريتية التي تَنْبُعُ في هذا الوادي العميق بحدود ٢٥٠م تحت سطح البحْرِ.

وصارَ سكان الجولان يتجمَّعون في خيمٍ وبَراكيات وبيوتٍ بدائية ، تسمىٰ تارة تجمعات النازحين وتارة أُخرىٰ بالوافدين ، وكلٌّ يحمل مفاتيحَ بيوتِه ومخازنه وحَضائِرَ دوابه وهم يَحْلُمُون بعودةٍ قريبةٍ إِلىٰ ديارهم بعد أن سمعوا بقرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة ، ومنهم من يعرفُ ما حصلَ وماذا حلَّ بهم وأنَّ دولة العدوان لا تحترم قراراً ولن تنفذه ، وما جرىٰ لأهل فلسطين يجري معهم اليوم ، وأن دورهم وبيوتهم يجري تدميرها.

كان أبو أَدهم رَجلاً يُحبُّ العملَ ويَنْشَطُ في حُقولِهِ وبساتينه في قريةِ عين عيشة غربي القنيطرة ، ويعاونه أولاده بالزراعةِ والحصاد وجني المحاصيل الوافرة ، وتربيةِ المواشي والدواجن ، وهو واحد من أرباب العائلات في هذه القرية المتآلفة المتحابَّةِ من عشائر التركمان ، وقد رحلوا عن قريتهم بعد أن هدَّدَتْهم القوات الغازية باستباحةِ حُرماتهم وقتلِ شبابهم أو أَخذِهم أسرىٰ ، وهم الذين يحافظون علىٰ شرفهم ويدافعون عن سلامة أعراضهم وسمعتهم.

قعد أبو أدهم في بيت استأجره في ضواحي دمشق لا حول له

ولا قوة ، ولا عملَ يعمله أو مصلحة يديرها ، وجاء أولادُه يعرضون عليه أن يعملوا في حقولِ المزارعين وبساتينهم بالإيجار ، وكان زهيداً لكثرةِ طالبي العمل المعروض عليهم ، وهم الذين تعودوا علىٰ حياةِ الوفرةِ والخبرات التي تنتجها حقولهم ومواشيهم ، وقال في نفسه: إن قريتنا تبعد عن خط وقف إطلاق النار مسيرةَ عدة ساعات ، وقد تركنا جَراراً في مخزنِ الآلاتِ جاهزاً جديداً ومملوءاً بالوقود ، وإذا أحضرناه فسيكون لنا مصدراً للرزقِ فَنُشَغِّلُهُ في حقولِ فلاحي الغوطة ، ولا بد أن نجد طريقة لإحضاره.

وهكذا أخذ أبو أدهم مفاتيح آليته واثنين من أولاده وسافروا حتىٰ أشرفوا علىٰ حدود قريتهم ، وعند المساء ولمّا اشتد الظلامُ يَمَّموا باتجاه دارهم علىٰ أطراف قريةَ عين عيشة ، وهم حذورن في سيرهم وتنقلاتهم حتىٰ وصلوا الكراج الذي بداخله الجرار المطلوب ، وبدا لهم أن القوات المحتلة تختفي في بيوتٍ وثكناتٍ محصنة ولا وجود لها في خارجها إلا من بعض آلياتٍ تمر بين الفينةِ والأخرىٰ في الطريق المعبدةِ ، ولما دخلوا فوجدوا الآلة علىٰ حالها وهي جاهزةٌ للعملِ والانطلاقِ ، وقد اشْتَغَلَت عند أولِ كبسةِ زرٍّ ، وقال أبو أدهم بعد أن امتطىٰ ظهرها: افتحا الباب لها بِعنايةٍ وسيرا أمامي وأزيحا من طريقَها الحجارة والحواجزَ ، وساروا نحو الشرق بهدوءٍ ومن دون أيةِ إشارةِ ضوئية إلا من إشارةِ الولدين لوالدهما ، وكان قلبُ الأبِ يدُقُّ

بسرعةٍ خوفاً علىٰ ولديه الذين أصرا علىٰ الحضور معه لإنجاز هذه المهمة لا خوفاً على نفسه من الأعداء ، وكان سيرهم بطيئاً واعترضتهم صُخورٌ وحُفَرٌ وأسلاكٌ وجدُرٌ ، واستطاعوا تجاوزها وعندَ الصباح كانوا يسيرون علىٰ طريق القنيطرة دمشق ، فرحين بما أنجَزوا وكسبوا .

إنه مصدرٌ لرزقهم ووسيلةٌ تساعدهم علىٰ العيش الكريم والاستغناء عن حاجَةِ الناس ، بل أصبح الناس بحاجة إليهم في نقل المحاصيل وحِراثةِ الأرض وتعشيبِ الحقول والمزارعِ .

أما الشاب نادر فقد دخلَ وادي الرقاد وتوجه إِلىٰ بلدته فيق حيث داره وما تحويه من المؤن والفراش والأثاث ، وفي عتمة الليل وصلَ مع مجموعةٍ من الناس حيث توزّعوا علىٰ بيوتهم لإحضار ما يحتاجون في غربتهم التي قد تطولُ ، وبعد أن حمَّلَ هذا الشاب ما وجدَهُ في مستودعٍ مليءٍ بالخيرات وساق دابَّته عائداً في طريقِ العودَةِ ، فقد اكتشفته دوريَّةٌ للاحتلالِ وأردته قتيلاً مكوَّماً فوق حصانه ، وصار بين الشهداءِ الخالدين علىٰ أرض وطنه وبلده .

* * *